

المثقف الجزائري بين تشكيل الهوية الوطنية و إعادة هبة الدولة

د. قرزیز محمود

أ. بوقفة عبد الرحمان

المركز الجامعي برج بوعريـريج

مقدمة

لا يستطيع أي مجتمع أن يتقدم ويزدهر حتى يعرف المكونات الثقافية التي تتحكم به وتُنظِّط تفكيره وتحدّد اهتماماته وتوجّه نشاطه. إن الثقافة بمعناها الانثروبولوجي والسوسيولوجي هي أسلوب أو طريقة الحياة التي يعيشها أي مجتمع بما تعنيه من تقاليد وعادات وأعراف وتاريخ وعقائد وقيم واهتمامات واتجاهات عقلية وعاطفية وتعاطف أو تنافر ومواقف من الماضي والحاضر ورؤى للمستقبل، إنها طريقة تفكير وأنماط سلوك ونُظم ومؤسسات اجتماعية وسياسية وما يعيشه المجتمع من انفتاح أو انغلاق، فالثقافة بهذا المحتوى العلمي هي في الغالب لا تأتي قصداً من الأفراد وإنما يكتسبها الناس امتصاصاً

المثقف الجزائري بـير تشكيل الهوية الوطنية و إعادة هبة الدولة...د. قرزیز محمود/أ. بوقفة عبد الرحمان
من البيئة منذ ولادتهم. وإذا اكتسبوا بالقصد فإن قُصدهم يون محدداً بالبرمجة
من الأهل والمجتمع، فهم يتشربون ثقافة أهلهم ومجتمعهم مثلما يتشربون اللغة
الأم ويحكمون على كل شيء وفق المعايير السائدة التي امتصوها امتصاصاً
تلقائياً، وامتزجت بعقولهم ووجدانهم.. فهي تحركهم بمخزون اللا شعور
ولكنهم يتوهمون أنهم يفعلون ذلك بمحض اختيارهم وفيض إرادتهم ويجهلون
أن مصدر هذه الثقة هو البرمجة الراسخة فيظنون مأخوذون بما ترمجوا عليه ولا
يخطر على بالهم أن يرتابوا فيه أو يراجعوه، ومن هنا تمايزت أوضاع
المجتمعات ، ويعلب المثقف والأكاديمي دوزرا بارزا في شرح للواقع
وتشخيصه بطرق عدة وعند تناول موضوع الهوية ، فلا بد للمثقف أن يبين أبعاد
تشكيل وتنمية الحس بتنميط الهوية الوطنية .

نعالج في هذا البحث طبيعة الدور الذي يلعبه المثقف ببلادنا في ظل
النقاش الكبير حول مسائل بناء و تحديد معالم الهوية الوطنية بمكوناتها
المختلفة و في ظل تحديات إعادة الاعتبار لهيئة الدولة .

أولاً- مدخل مفاهيمي :

قبل تقديم التحليل العام و السوسيولوجي للموضوع ينبغي شرح جملة
من المفاهيم ، وتبيان علاقة بعضها ببعضها الآخر.

1- الثقافة:

من منظور علم الاجتماع، يأخذ تعريف الثقافة عدة أراء على يد علماء
عديدين (جيرارد أودونيل، ماكس فيبر، ماركس، وغيرهم)، ليصبح تعريفاً
اصطلاحياً يُشير إلى طريقة الحياة التي تتمكن جماعة بشرية من تأسيسها لتكون
مقبولة من جميع أفراد الجماعة، وملائمة لهم كمجموع، وهي طريقة تتضمن
أساليب الإدارة وآلياتها، ونمط التفكير، وآداب السلوك والمعتقدات، أو منظومة

المثقف الجزائري بيد تشكيل الهوية الوطنية و إعادة هبة الدولة...د. قرزيز محمود/أ. بوقفة عبد الرحمان
الأخلاق والقيم التي تحكم الجماعة، وكذلك اللغة، ونمط العيش بما يتضمنه
من مسكن ومأكل ومشرب ومن علاقات وأنظمة سلوك تؤسس التواصل بين
الفرد والفرد، وبين الفرد والجماعة، وبين الفرد والطبيعة، وبينه وبين الوجود.

الثقافة، إذن، هي اجتماع الأنظمة المادية والروحية التي ابتكرها الإنسان
لتحكم سلوكه فيما هو ذاهب إلى الارتقاء بهويته وذاته ونمط حياته والإعلاء من
شأن وجوده في الحياة عبر الانخراط في صيرورة هي الثابت الوحيد في هذه
الحياة، وعبر الاحتفاظ بأبنية ثقافية تحملها اللغة إلى الأجيال اللاحقة كي
تسكنها وتتولى تعديلها أو إعادة إنتاجها وفق حاجاتها وشروط تطورها.

ولئن كان إدوارد تايلور قد أحصى ما يزيد على مائتي تعريف للثقافة، فإنه
خلص إلى تعريف شامل تمثل في مقترح مفاده أن "الثقافة هي ذلك الكل المعقد
الذي يتضمن المعارف والمعتقدات والفنون والآداب والأعراف والقوانين وغير
ذلك من منجزات الإنسان كفرد أو كمجتمع"

عرفت منظمة اليونسكو الثقافة بأنها "جميع معارف الإنسان المتعلقة بالطبيعة
والمجتمع"

إن مصطلح (ثقافة)، يحيل إلى تعريفات لا حصر لها، دون أن يتحقق اتفاق
حولها بين الباحثين. ويكفي القول بأن هناك اتجاهين، في تلك التعريفات،
يتنافسان على التفوق: أحدهما ينظر للثقافة على أنها تتكون من القيم والمعتقدات
والمعايير والتفسيرات العقلية، والرموز والأيدولوجيات، وما شاكلها من
المنتجات العقلية. أما الاتجاه الآخر فيرى الثقافة على أنها تشير إلى النمط
الكلي لحياة شعب ما، والعلاقات الشخصية بين أفرادها، وكذلك توجهاتهم.
ولعل محاولتنا تفكيك علاقات الاختلاف هذه، بين الاتجاهين المذكورين،
تهدينا إلى حقيقة وجود رابط خفي. ولكنه عميق. بين كل من الحلم الوجداني

المثقف الجزائري بين تشكيل الهوية الوطنية وإعادة هيكلة الدولة... د. قرزيز محمود/أ. بوقفة عبد الرحمان
والفكر العقلاني، في المجتمعات البشرية المتحضرة. فالمجتمعات لا تنظر فقط
إلى إمكانياتها؛ ولكنها - بالإضافة إلى ذلك - تحلم بما ستكون عليه، أو بما
تستحقه، أو بما كانت عليه وتعترض به، كما تحلم بتصوراتها الخاصة عن علاقتها
بالكون المحيط - الطبيعة والبشر - وعالم الغيب الذي تتجه إليه في لحظات
معينة... واعتقادات كثيرة ومتعددة، تدخل في صلب تصوراتها عن نفسها،
وتتدخل في تشكيل هويتها الخاصة.

2- الانتماء:

الانتماء بمفهومه البسيط يعني الارتباط والانسجام والإيمان مع الممتني إليه
و به، وعندما يفتقد الانتماء لذلك فهذا يعني أن به خللاً ومع هذا الخلل تسقط
صفة الانتماء، و الانتماء كمفهوم ينتمي إلى المفاهيم النفسية الاجتماعية، ويعني
الاقترب والاستمتاع بالتعاون أو التبادل مع آخر، وفي الحقيقة أن دافع الانتماء
(الجوع الاجتماعي)، إذا توافر لدى الفرد وتحفز يبلغ من القوة أنه يستطيع أن
يعدل كثيراً من سلوك الفرد حتى يصبح سلوكه مطابقاً لما يرضيه مجتمعه.
فعندما ينضم الفرد إلى الجماعة يجد نفسه، في كثير من الأحيان، مضطراً إلى
التضحية بكثير من مطالبه الخاصة ورغباته في سبيل الحصول على القبول
الاجتماعي من أفراد الجماعة وتجده يساير معايير الجماعة وقوانينها وتقاليدها
فيتوحد الفرد مع الجماعة فيرى الجماعة وكأنها امتداد لنفسه يسعى من أجل
مصلحتها وي بذل كل جهد من أجل إعلاء مكانتها ويشعر بالفوز إذا فازت أو
بالأمن كلما أصبحت آمنة. والانتماء الوطني يعتبر من أوضح نماذج التوحد مع
المجتمع حيث يلاحظ تأثير شخصية الأمة National Character على شخصية
الفرد وتطابق شخصيته مع النمط الثقافي السائد. أما إذا لم يتوفر دافع الانتماء
يصبح الفرد في حالة حياد عاطفي بالنسبة للآخرين أو المجتمع ومعنى ذلك إما

المثقف الجزائري بين تشكيل الهوية الوطنية و إعادة هبة الدولة...د. قررير محمود/أ. بوقفة عبد الرحمان
أن ينحصر اهتمامه في ذاته أو يصبح في حالة ركود وعدم نشاط لعدم توفر
الدافع على أداء فعل معين والشخص غير المنتمي قد انفصل عن ماضيه
وحاضره ولم يعد يهتم بمستقبله .

3-الانتماء والمواطنة :

ذهب الباحثون في علم الاجتماع إلى تعريف المواطنة في المجتمع الحديث
على أنها علاقة اجتماعية تقوم بين الأفراد والمجتمع السياسي (الدولة)، حيث
تقدم الدولة الحماية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للأفراد، عن طريق
القانون والدستور الذي يساوي بين الأفراد ككيانات بشرية طبيعية، ويقدم الأفراد
الولاء للدولة و يلجئون إلى قانونها للحصول على حقوقهم. ومن مميزات هذا
التعريف انه بالإضافة إلى كونه نمطياً من الناحية النظرية فهو في الوقت نفسه
إجرائي منهجي يتيح دراسة المواطنة وقياسها وتحديد مستوياتها والتنبؤ بأبعادها
وآفاقها وتقييم وتقويم أدائها في أي مجتمع .

فمن الواضح في هذا التعريف أنه يتضمن آلية التعاقد (العقد الاجتماعي)
فحين يفترض أن تكون الحكومة التي تدير الدولة هي المسؤولة عن ترسيخ
الشعور بالمواطنة، فإنها إذا أخلت بشروط العقد أي إذا لم تؤمن الحماية
الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للأفراد ولم تساو بينهم عمليا أمام القانون،
كان من الطبيعي أن يخف إحساس الأفراد بشعور المواطنة والولاء لقانون
المجتمع . الدولة التي يعيشون في ظهرانيتها، وأن يبحثوا عن مرجعية أخرى
تحميهم، أو تقدم لهم شعورا ولو كان وهميا بهذه الحماية، كالعودة إلى الارتباط
بالجذور الدينية أو الطائفية والعائلية والقبلية والعرقية والإقليمية.

4- الانتماء الاجتماعي:

يعد مفهوم الانتماء الاجتماعي واحداً من أهم المفاهيم المركزية التي تحدد طبيعة علاقة الفرد بالجماعة في كل زمان ومكان يقابله على الضد تماماً مفهوم الاغتراب الذي يعني الابتعاد النفسي للفرد عن ذاته وعن جماعته. وسواء ابتعد الفرد عن جماعته أو غادرها إلى جماعة أخرى، فهو في كلتا الحالتين إنما يفقد انتماءه لجماعته من جانب ويواجه برفض الجماعة الأخرى له من جانب آخر لاختلاف عاداته وقيمه ونمط شخصيته وخبراته مما يسبب غربته من ناحية وعدم انتمائه لمجتمعه من ناحية أخرى، وهناك حقيقة أن البشر كائنات اجتماعية، مخلوقات تتجمع سوياً ويعتمد كل منها على الآخر جسدياً أو نفسياً عبر الحياة. فالعلاقات الوثيقة مع الآخرين تبدو من الضروريات وهي أمور تتكامل مع بقاء الإنسان ورفاهيته فالبشر قادرون على تقديم كل منهم للآخر أعظم مسرات الحياة وأفراحها وكذلك أحزانها العميقة كما يمكنهم إعطاء نوع من التعاطف والتأكيد والحماية من الأخطار وبالتالي فإن حاجة الفرد للآخرين تكمن في مساعدته على حل مشاكله وإرضاء حاجاته التي لا يستطيع حلها وإرضاءها بمجهوده الخاص فيشعره بالأمن ويزيدوا من احترامه لنفسه.

5 - الهوية :

تعرف الهوية "باعتبارها الميزة الثابتة في الذات" ويختزن هذا التحديد معنيين يعمل على توضيحهما معجم المفاهيم الفلسفية على الشكل التالي "إنها ميزة ماهو متماثل، سواء تعلق الأمر بعلاقة الاستمرارية التي يقيمها فرد ما مع ذاته أو من جهة العلاقات التي يقيمها مع الوقائع على اختلاف أشكالها".

ومن ثمة تصبح الهوية الثقافية هي "الفعل الذي يجعل من واقع ما مساوياً أو شبيهاً بواقع آخر من خلال الاشتراك في الجوهر" ويستعمل المفهوم سواء في

المثقف الجزائري بين تشكيل الهوية الوطنية و إعادة هبة الدولة...د. قرزيز محمود/أ. بوقفة عبد الرحمان
الانثروبولوجيا أو في علم النفس حيث يحدده عالم النفس الاجتماعي *بيير
تاب* بكونه "الاحساس بالهوية هو الامر الذي يجعل شخصا ما يشعر بكونه
هو، ويبقى كذلك في الزمن "وبمعنى أكثر اتساعا يضيف "انه نسق من الاحاسيس
و التمثلات التي يستطيع بواسطتها فرد ما الاحساس بتميزه ،وبهذا المعنى
فهويتي هي ما يجعلني ممثلا لنفسي و مختلفا عن الآخرين " ، ويحضر مفهوم
الهوية انثروبولوجيا كعلامة غير منفصلة عن مسلسل الفردنة أي كشكل من
اشكال التمايز بين الطبقات نفسها يقول نيكول ساندزنيكر: "لا تنفصل الهوية عن
الفردنة، أي عن مسلسل الفردنة فمن اجل إعطاء هوية لشخص ما أو لمجموعة
من الأفراد ،يبدو لزاما التمييز بين ما ليسوا هم ،و بالمقابل ينبغي فهم الفرد في
خصوصيته كما يجب اخذ هويته التاريخية بعين الاعتبار"

تتقاطع إذن أبعاد المفهوم ما بين مختلف التخصصات ،إنها مفهوم يمكن من
تحديد الأنشطة التي يبني بواسطتها الفرد أناه و تمتد لتشمل مختلف المؤثرات
الزمانية والمكانية و مختلف استراتيجيات بناء الذات من خلال العلاقات
الاجتماعية ذاتها . يطرح إذن البعد المزدوج للهوية إشكالا أساسيا ما بين تلك
الرغبة في التميز كفرد و كأنا مستقلة وما بين امتداد الهوية في نسق مبين من
الرموز و القيم الممتدة في قيم الجماعة و أدواها و من ثمة تصبح الهوية في
بعدها الفردي غير قادرة على تقديم رؤى واضحة و بالتالي يصبح الانتقال إلى
الهوية الجماعية معبرا رئيسيا حاولت السوسيولوجيا القيام به بيد أنها و بفعل
التعقيد الذي تعاني منه سرعان ما أفسحت المجال لعلم النفس الاجتماعي
كتخصص هوياتي با متياز.. مفهوم (الهوية) مثل معظم مفاهيم العلوم الانسانية،
هلامي وواسع يحتمل الكثير من المعاني والتفسيرات، وكثيرا ما يتم خلطه مع
(الثقافة)، التي هي بالحقيقة تشكل جزءا من مفهوم الهوية وليس كله.

يحدد السوسيولوجيين تأويلين للهوية:

أ- التصور الستاتيكي أو الماهوي للهوية ،الذي يرى أن الهوية،عبارة عن شيء اكتمل وانتهى وتحقق في الماضي،في فترة زمنية معينة، أو نموذج اجتماعي معين وان الحاضر ما هو آلا محاولة أدراك هذا المثال وتحقيقه.

ب - التصور التاريخي والديناميكي للهوية الذي يرى أن الهوية شيء يتم اكتسابه و تعديله باستمرار ، وليس أبدا ماهية ثابتة ، أي أن الهوية قابل للتحويل والتطور ، وذلك لأن تاريخ أي شعب هو تاريخ متجدد ومليء بالأحداث والتجارب ، فأن الهوية الأصلية تتغير باستمرار ، وتكتسب سمات جديدة، وتلفظ أخرى وهذا يعني أن الهوية شيء ديناميكي و هو سلسلة عمليات متتابعة كما أنها تتحول مع الزمن فهي ديناميكية، وهي ترتبط بالأثر الذي تتركه الحضارة عبر التاريخ ، ويمكن النظر الى الهوية في صورتها الديناميكية على أنها مجموعة من المقررات الجماعية آلتى يتبناها مجتمع ما ، في زمن محدد للتعبير عن القيم الجوهرية (العقائدية) و الاجتماعية والجمالية والاقتصادية والتكنولوجية والتي تشكل في مجموعها صورة متكاملة تتغير عن ثقافة هذا المجتمع وأي تهديد لكل أو أحد هذه القيم ، يجابهه سخط الدفاع العفوي أو المقاومة الثقافية، الذي يعمل حافظا لهذه القيم، من التصدع والانهار، أو التلاشي .ويتولى خط الدفاع مهمة تكييف العناصر المهددة لنواة الثقافة، وتكييف بعض العناصر المشكلة لنواة الثقافة بما يضمن حفظ جوهرها لتشكيل الصورة الاجتماعية

وعلى العموم فإن مكونات الهوية الإنسانية تنسج وجودها عبر شبكة من العلاقات التي تدرج في الخانات الحضارية والمشاركات التالية:

1 .مجال جغرافي ووطن تاريخي مشترك.

2 . ذاكرة تاريخية مشتركة.

3 .ثقافة شعبية مشتركة.

4 .منظومة حقوق وواجبات مشتركة.

5 .اقتصاد مشترك.

ثانيا - الثقافة و الهوية :

هل يمكن القول الآن بأن الثقافة صارت تعني الاعتراف بوجود النزاع؟. هو كذلك بالفعل، لأن الثقافة، من منظور ما بعد الحداثة، لم تعد تعني السمو فوق الهوية . ولقد بدت علاقة الثقافة بالهوية أمراً محتوماً، ليس في نظر الفلسفة وعلماء الأنثروبولوجيا و الاجتماع فقط، بل كذلك في نظر واضعي إعلان اليونسكو، الذين لا يمكن تصورهم بعيدين عن تأثير الساسة، في بلدانهم التي انتدبتهم لتمثيلها هناك.

إذن يمكن القول: بأن علينا منذ الآن، ووفقاً لهذا التصور، عن علاقة الثقافة بالوعي الجمعي والهوية، أن نستمع جيداً إلى هذه النصوص التي نقرأها: نستمع إلى ما لا يقال فيها بصورة مباشرة، بنفس الدرجة التي نستمع فيها إلى ما يقال بطريقة مباشرة. ولعل الذي لم يقل يكون أكثر أهمية مما قيل، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بالهوية، لأننا نعلم أن الجماعة تلعب دورها الحاسم، في تشكيل لغة الخطاب، وشفراته، ورموزه.

إن ارتباط الثقافة بكل من الهوية ، يحيلنا إلى مفهوم كليفورد جيرترز القاضي باعتبارها منظومة من الرموز، التي تنتجها الجماعة، بطابعها المحلي. وعلى هذا، فهي . بحق . ذلك الشعور العميق، الذي يمد الوعي بآليات تفسير معينة، للمواقف المختلفة: وهذه الآليات تمتلك من القوة، ما يجعلها تنشط للعمل فوراً، عند حدوث أي موقف حياتي؛ حتى دون أن يستدعيها الوعي.

المثقف الجزائري بـير تشكيل الهوية الوطنية و إعادة هبة الدولة...د. قرزيز محمود/أ. بوقفة عبد الرحمان
العلاقة بين الثقافة والهوية علاقة تلاحم ..كل خلخلة أو اختراق للثقافة
سيؤدي بالضرورة إلى إضعاف لمكونات الهوية إن لم نقل تفتيتها لها مستقبلا .إن
الخطاب حول " الهوية " أصبح سائدا في كل ساحات النقاش الفكري ، ليس في
الدول الضعيفة فحسب ، بل حتى في الدول المتقدمة ، فهذا الاتحاد الأوروبي
الذي أصبح يشكل قطبا سياسيا واقتصاديا وثقافيا كبيرا في العالم ، خاصة بعد أن
أصبح يتكون من خمس وعشرين دولة ، يتوجس خيفة من الاختراق الثقافي
الأمريكي ، ويتخذ العديد من القرارات العملية لمواجهة مكونات النمط الثقافي
الأمريكي .نقاش فكري ساخن هنا وهناك إلى درجة أن المؤرخ " ألفريد
غروسير" رأى أن هناك : كلمات قليلة أخذت هذه الأيام البعد الذي أخذته كلمة
الهوية ...فالهوية تحتل الصدارة في النقاشات الفكرية.

3- المثقف الجزائري و الهوية الوطنية :

بعد أن وضعنا مفهوم الثقافة بما لا يدع أي مجال للبس والغموض، بات
واضحاً كذلك معنى المثقف، فالمثقف هو مظهر الثقافة ومصدقها والمعبر عنها
وحاملها وموصلها لسواه.

صحيح أن المثقف ليس هو الذي يوجد الثقافة فهي موجودة بدونه، لكن
المثقف هو الذي ينقلها من السكون الى الحركة، ومن الخمول إلى النشاط.
ولكن ليس هو الموجد لها.

وإذا كانت الثقافة الصحيحة السليمة تحتفظ في داخلها بشروط بقائها فماذا
يبقى للمثقف من دور؟!

وجواب هذا السؤال أن المثقف هو أحد بل أهم شروط ظهور الثقافة، فلا
ظهور للثقافة دون مثقف.

المثقف الجزائري بـير تشكيل الهوية الوطنية و إعادة هبة الدولة...د. قرزیز محمود/أ. بوقفه عبد الرحمان
إن القيم والمفاهيم والمعلومات والعقائد والفلسفات والأخلاق وكل
مكونات الثقافة ومقوماتها تبقى صوراً تجريدية ذهنية ما لم تظهر على أرض
الواقع وتتجسد في مصاديق مادية عملية. أنا لمثقف الحقيقي لا يمكن أن يصل
إلى مرحلة ويقف عندها ويقول عن نفسه : أنا مثقف، لأنه يعلم تماماً أن الثقافة
ليس لها سقف تتوقف عنده، وليست محصورة في كم من الكتب أو المعلومات
أو الأطروحات، فهو في كل مره يبحث أكثر وأكثر، ويرى أنه لازال بحاجة إلى
المزيد.

إذاً فالمفترض أن بالمثقف ألا يعمل على أفكار وتوجهات و شعارات كان
موجودة سابقاً، ليأتي هو ويطبّقها دون العمل على خلق فيها أي حاله أو الإبداع،
وأن يخلق له مفاهيمه الخاصة من خلال تفكيره الخاص وتوليده للأفكار
والإبداع، والوعي بكلّ هذا قبل التطبيق .. هو الأهم!..، فالأفكار والإيمان هي
الأساس التي تنبني عليها الممارسات.

إن أهمية المثقف إنما تنبثق من أهمية الثقافة نفسها وحاجة المجتمع إليها.
ويميز البعض بين مثقف ساكن ومثقف متحرك، الأول لا دور له في مجتمعه
والثاني ينهض بدوره في المجتمع، وبين مثقف منغلق ينتج ثقافة الجمود ومثقف
منفتح ينتج ثقافة التجديد، الأول يعيش خارج الزمن فمسيرته إلى التوقف
والثاني يواكب الزمن ويعيش فيه فمسيرته إلى النمو، ويميز بين مثقف النخبة
الذي يعيش بعيداً عن الناس ويتحدث بخطاب القلة أو النخبة فقط ومثقف
الجمهور الذي يعيش مع الناس ويتحدث بخطابهم خطاب الجمهور والكثرة،
ويميز بين مثقف مستبد يتحول قلمه إلى رفض الآخر، ولا يتحدث إلا بلغة
الرفض والنفي والإقصاء ويمارس القمع ، ومثقف شوروي (أو ديمقراطي)
يتحدث قلمه بلغة التعددية والتعايش والتسامح ويمارس الحرية والعدالة.

المثقف الجزائري بيد تشكيل الهوية الوطنية و إعادة هبة الدولة...ج. قرزیز محمود/أ. بوقفة عبد الرحمان
ونحن . مع من . يريد ظهور المثقف المتحرك مع آمال الأمة وتطلعاتها وقيمها
ومفاهيمها، المنفتح على كل الثقافات القديمة والمعاصرة، الذي يتبنى الحرية
والعدل والشورى ويخاطب جماهير الناس ونخبتهم كلاً بما يناسبه، ولا يقصر
خطابه للنخبة فقط.

الحديث عن المثقف في موضوع الهوية يجعلنا نقرب من هذا الدور ببلادنا ،
واثر ذلك نتساءل عن طبيعة هذا الدور، والاضافات التي يقدمها المثقف
الجزائري تجاه وطنه ، وتجاه الهوية الوطنية .

يتميز الخطاب الثقافي المنتج من طرف المثقفين الجزائريين وهو يتناول
مسألة الهوية، بالتأزم وعدم القدرة على خلق خطاب جامع ومتفق عليه نسبيا
حول هوية اجتماعية واضحة للمجتمع الجزائري، حيث نلاحظ أن مسألة الهوية
في الجزائر تمثل إشكالية قصوى ضمن فسيفاء المشهد الثقافي ككل، وهذا ما
يتجلى في انقسامية المثقفين الجزائريين حين يتعلق الأمر بنظرتهم لهوية
المجتمع الجزائري، وقبل التطرق إلى محددات الهوية الجزائرية، يجدر بنا
الإشارة إلى أهمية تكون هوية واضحة المعالم ودور هذه الهوية في توفير ودعم
السلم الاجتماعي . حيث يمكن توضيح المسألة بالشكل التالي:

أ - لا وجود لشرعية سياسية حقة وبالتالي لدولة وطنية شرعية إلا بوجود
شرعية ثقافية. ب- ولا وجود للشرعية الثقافية إلا بوجود هوية اجتماعية
واضحة.

وهذه الهوية الواضحة اجتماعيا والتي تحضى بالقبول النسبي من طرف
جموع المواطنين أو أفراد الأمة وكذا مختلف الفاعلين السياسيين داخل
المجتمع، تساهم أكثر ما تساهم في دعم السلم الاجتماعي الذي يظل مرتبطا
بتوافر الشرعيتين السابقتين وهما الشرعية السياسية والشرعية الثقافية، بالإضافة

المثقف الجزائري بـير تشكيل الهوية الوطنية و إعادة هبة الدولة...د. قرزیز محمود/أ. بوقفه عبد الرحمان
إلى عوامل أخرى مادية أساسا مرتبطة بمستوى الرفاه الاقتصادي والتقدم
الحضاري الذي يبلغه المجتمع في مرحلة معينة من مراحل التاريخة.
هناك عدة عوامل تاريخية، محلية وكونية، ساهمت في بلورة ثوابت معينة للهوية
الجزائرية تتمثل هذه الثوابت في ثلاث محددات رئيسة هي:

- الدين الإسلامي.

- اللغة العربية.

- اللغة الأمازيغية .

والخلاف ليس حول هذه الثوابت الثلاثة التي تحضى بقبول نسبي من طرف
جموع المواطنين باستثناء بعض الفئات/ التيارات غير مسموعة الصوت التي
تلغي عنصر معين لضيق الرؤية أو لادولوجية معينة غير مقنعة.

ان القراءات الفكرية للمثقفين الجزائريين في موضوع الهوية أحيانا نلمس
فيها تعارضا أو نفيا ليس لعنصر معين بل يتجاوز الأمر الى نفي الآخر الذي
يسعى معه الى تشكيل الهوية الوطنية، هاته الآراء التي تصطدم مع الخطاب
الرسمي حول الهوية الجزائرية الذي يقر بالمرجعيات الثلاث المحددة سلفا.
والحالة فإن الاختلاف حول الهوية الجزائرية والذي جعلها تشحن بكثير من
التناحرية في صياغتها وفي تأثيرها الاجتماعي على الواقع الجزائري، ليس حول
تعيين المحددات الثلاث للهوية الجزائرية، إنما حول التوليف والتركيب بينها،
فالجزائر بهذا هوية " لا تتميز عن بقية البلدان العربية الإسلامية الأخرى إلا
بأمازيغيتها، إذ أن العروبة والإسلام هو قاسم مشترك مع بقية الدول العربية
الإسلامية،

المثقف الجزائري بـير تشكيل الهوية الوطنية و إعادة هبة الدولة...د. قرزیز محمود/ا. بوقفة عبد الرحمان
ان الساحة الفكرية والسياسية في الجزائر اليوم تجتمع على اهم معوقات
التطور و التنمية مشكلة تشكيل الهوية الوطنية .

وبالتالي فهل العروبة والامازيغية المتعايشة تعني تواجد شعبين في وطن
واحد أم تعني تواجد ثقافتين لدى شعب واحد؟".

وهل الإسلام وحده هو العنصر الذي تنصهر ضمنه العروبة والامازيغية؟
وهل الإسلام كعنصر موحد قد أنتج فهما موحدًا لدى العنصرين الامازيغي
والعربي المتعايشين معا في الجزائر؟.

وهل نكتفي بالمحددات الثلاثة للهوية الجزائرية دون أن نكلف أنفسنا عناء
البحث عن محددات أخرى حتى لو كانت ثانوية؟.

يبدو موضوع الهوية الجزائرية بهذا الشكل مجالا خصبا للتساؤل، أكثر مما
هو مجال للبحث عن إجابات مقنعة، واستحالة الوصول إلى إجابات " مقنعة "
تحضى بالقبول النسبي من طرف جموع المواطنين والفاعلين في الساحة
السياسية والثقافية، ينجر عنها "محاولات" لتقديم أطروحات حول الهوية، تتسم
بالانغلاق على الذات والركون لمرجعيات محددة سلفا تستمد منها العناصر
الأساسية لبناء شرعية ثقافية وسياسية معينة، والنتيجة "أن كل طرح من هذه
الطروح يؤسس بطريقة مختلفة تماما للشرعية الثقافية وللشرعية السياسية عن
غيره من الطروح وحولها يقع الانقسام وازدواج الشرعية الثقافية والسياسية"
وهذا ما يخلق انقسامًا و "كسرا دالا في تمفصل الدولة بالمجتمع، وتصدعا في
إيديولوجيا المشروع وظهور أسئلة جديدة"، هذه الأسئلة التي تثار دوما حول
الهوية الجزائرية.

الهوية في النهاية وبرؤية سوسيو-تاريخية ليست معطى ثابت، حيث أن التغير
يظل لصيقا بها نتيجة لما يتعرض له أفراد المجتمع من تأثيرات خارجية تساهم

المثقف الجزائري بيد تشكيل الهوية الوطنية و إعادة هبة الدولة...د. قرزيز محمود/أ. بوقفة عبد الرحمان
في قولبة "هوياتهم" وإعادة إنتاجها بفعل التأثير والإغراء الذي تمارسه بعض
تلك المؤثرات، فهناك الكثير من "المؤثرات الكونية الجديدة التي لا يزال العقل
الجزائري المتأمل يقف مشدوها إزاءها لا يجد نقطة ارتكاز يمكنه الانطلاق منها
لمساءلة الآخر " وبالتالي إبداء الموقف إزاءه، رغم توافر الهوية ثلاثية
المحددات التي يستند إليها الفرد الجزائري وهو يلتقي بالمؤثرات الثقافية
الوافدة، على قوة شحن عاطفي وعلى الامتداد التاريخي والتجدر الاجتماعي،
إلا انه يشعر دوما بأن هويته المأزومة لا تسعفه في تبني رد فعل ايجابي اتجاه
الآخر، وهذا ما يجعله يلجأ في الغالب نحو رد فعل انفعالي ومتطرف سواء
بالقبول التام لتلك المؤثرات وتبنيها، أو برفضها التام متوقفا على ثوابته التي
يشعر بالخوف الكبير عليها من كل وافد، نظرا لما تتسم به هذه الثوابت من
ضعف وهشاشة تجعلها عاجزة عن مساءلة الآخر من موضع.

4- المثقف الجزائري ومستقبل تشكيل الهوية الوطنية في ظل تحديات العولمة :

ما نعنيه بالثقافة هو مجموعة الأفكار والمفاهيم والمعلومات وكل ما يتعلق
بالإنسان والطبيعة وماهية العلاقة بينهما عبر مراحل الزمن الثلاث الماضي
والحاضر والمستقبل .

وبناءً على هذا التعريف يكون المثقف هو ذلك الإنسان الذي يتكون تفكيره
من تلك الأفكار والمفاهيم والمعلومات مضافاً إليها خبرته العامة التي تكونها
تجاربه السابقة والنتيجة من إحتكاك مباشر بالواقع الملموس .

والمثقف اساسا يجب أن يكون ملتزماً بقضايا المجتمع ، يتعرف على
إحتياجاتها وامكانياتها والطاقة المدخرة فيها ، ويعمل في ذات الوقت بالفكر
وبالممارسة على الموازنة بين تلك الإمكانيات والإحتياجات مع ترتيب الأشياء

المثقف الجزائري بـير تشكيل الهوية الوطنية و إعادة هبة الدولة...د. قرزيز محمود/أ. بوقفة عبد الرحمان
بأولويات و ثانويات حتى لا تستهلك طاقات المجتمع وتضيع هدراً في مسالك
غير مسالكها الطبيعية .

بغير ذلك لا يمكن أن نطلق صفة المثقف على أي كان مهما تكن درجة
الثقافة التي يمتلكها . فهو إما أن يكون مجرد مخزن لمعلومات كثيرة أو أن
يكون في ممارسته ضد حركة التاريخ وعاملاً معرفياً في طريق المجتمع . نفهم
دور المثقف بالمعادلة التالية :

- المثقف = معرفة + إلتزام ، وربما زائد مشروع.

يحتاج المثقف إلى معرفة عامة ، كمنهجية التفكير الموضوعي ، والعلاقات
بين الأشياء وغير ذلك مما يشكل له أدوات أساسية لرؤية الأشياء و تقديم
اطروحاته حولها . كما أنه يحتاج إلى معرفة خاصة والتي تتعلق بما هو ملتزم
بالعمل من أجله فمثلاً يكون ملتزماً بمعالجة قضايا التعليم في بلده إذا هو يحتاج
إلى معرفة واقع التعليم في بلده وكل ما له علاقة بهذه الأوضاع . أما عن الإلتزام
فالمثقف بجانب تناوله للعديد من القضايا ، يلتزم بالعمل على قضية معينة
تختلف درجة تحديد هذه القضية فهناك من يلتزم بالقضايا الاقتصادية بشكل عام
، و آخر يكون أكثر تحديداً فيلتزم بمعالجة قضية

المستوى المعيشي للفرد ، هناك من يلتزم بقضايا التعليم بشكل عام وآخر
يلتزم بقضايا التعليم العام .

وقد يكون للمثقف مشروع يعمل لتحقيقه ، فلا يكتفي بفهم و معالجة
الواقع بل يسعى لإيجاد واقع جديد يتوافق مع ما يحمله من رؤى و هذا قد
يجعل جهد المثقف أكثر تركيزاً وقد يجعله مؤثراً أكثر من كونه متأثراً . هناك
مبدأين يشتقان من مبدأ الهوية، الاول هو مبدأ التناقض، وهو الشكل السلبي
لمبدأ الهوية، فلا يمكن لشيء ان يكون ولا يكون في آن واحد.

المثقف الجزائري بيد تشكيل الهوية الوطنية و إعادة هبة الدولة...د. قرزيز محمود/أ. بوقفة عبد الرحمان

والمبدأ الثاني، وهو مبدأ المحذوف او مبدأ حذف الوسط وهو شكل منفصل عن مبدأ التناقض، فالشيء اما ان يكون او لا يكون ولا وسط بين امرين الهوية عملية ادراكية تتعلق بعملية تقييم متبادلة ما بين تقييم الفرد لذاته وتقييم الآخرين له.

يرى جون ديوي: ان الهوية هي احساس بالانتماء الاجتماعي وتعني الولاء له.

ومن هنا ينبغي ان ننطلق لتحديد الهوية الثقافية، فمن وجهة نظري ان الهوية الثقافية شكل ومضمون او بنية وجوهر، فالهوية الثقافية اذا ما تناولناها من منطلق بنيوي، فلا شك انها تعتمد على مجموعة من الانساق لتشكل الاطار الثقافي او الخصوصية الثقافية او المنهج، اما اذا تناولناها كجوهر، فيمكن ان نؤشر هنا الجانب المعرفي، والابداعي ويمكن القول، ان الاطار والجوهر لا يمكن ان يعملما بشكل منفصل الا بوجود علاقة بنيوية، تتداخل فيها الانساق بين البنية والجوهر. فالهوية في المنظور السيكو - ثقافي هي الاسلوب اما في المنظور السوسيو - ثقافي هي النموذج.

واذا ما اخذنا الجانب الذاتي للهوية، فهنا يتحدد المشروع الوجودي للمثقف الجزائري، والسؤال الفلسفي الذي يطرح نفسه هل انا موجود لأنني مثقف، ام اني موجود لأنني انسان فأيهما يقع عليه اختياري. واذا ما تم اختياري لأحدهما فهل سيعلن موتى كمثقف ووجودي كأنسان، ام موتي كأنسان ووجودي كمثقف. واذا ما اعتمدنا هذه الرؤية فسيكون هناك انشطار للهوية وبالنتيجة لابد ان يكون وجودي كإنسان معادلا موضوعيا لوجودي كمثقف وبالعكس. اذن لكي تتحقق هذه المعادلة هنالك شرطان اساسيان هما الوعي والارادة فالمثقف الجزائري اذا لم تكن لديه ارادة لا يمكنه الاختيار واذا لم يكن واعيا بأختياره لا يمكن ان

المثقف الجزائري بـير تشكيل الهوية الوطنية و إعادة هبة الدولة...د. قرزيز محمود/أ. بوقفه عبد الرحمان
يحدد حراكه الثقافي ولا هويته الثقافية وبنفس الوقت اذا استطاع المثقف
الجزائري ان يعي ذاته ويدرك ابعاد وجوده وما هيته فيمكن ان يحدد او يضع
مشروعه الوجودي، وفي ذات الوقت يضع المشروع الوجود للآخر لان المثقف
اذا ما ادرك دوره واستوعب معطيات الوجود الفكري لصيرورته عند ذاك يمكن
ان ينتج الوعي الثقافي ومن ثم الوعي الحضاري.

والحقيقة ان "الهوية الثقافية" في المنظور السوسيولوجي تتحدد من خلال
(الفعل الثقافي) للمثقف لانه يمتلك الوعي والارادة ونضيف هنا بعدا اخر هو
الإبداع) فالهوية الثقافية تخرج من الاطار التجريدي الى الوجود المادي تتجسد
ومن هنا يجب ان ندرك اهمية دور المثقف في صناعة الهوية الثقافية للمجتمع .
ان المثقف الجزائري يجب أن يلتزم بضرورة الدفاع عن المنظومة القيمية
لمجتمعه و أن يدافع أيضا عن المبادئ والخصائص المشتركة لأفراد المجتمع ،
و تفعيل لبعد المواطنة انطلاقا من احترام معالم الهوية والانتماء .

أمر آخر يطرح بقوة ليس على المستوى الداخلي بل على المستوى
الخارجي خصوصا موقع الهوية الثقافية والوطنية اليوم في ظل تحديات
وارهاصات العولمة . حيث هناك من يقدم رؤية تشاؤمية على أن العولمة تعني:
نفي الآخر، وإحلال الاختراق الثقافي .. والهيمنة، وفرض نمط واحد للاستهلاك
والسلوك، أو فرض نموذج وثقافة وسلوكيات وقيم وأنماط واستهلاك على
الآخرين، كما إن العولمة تعني غزو ثقافي اجتماعي اقتصادي سياسي يستهدف
الدين والقيم والفضائل والهوية بينما نجد البعض يجعلها مجرد انتماء عالمياً،
كما عرفها الدكتور *صبري عبدالله* حيث قال: بأنها ظاهرة تتداخل فيها أمور
الاقتصاد والثقافة والاجتماع والسلوك، ويكون الانتماء فيه للعالم كله، عبر
الحدود السياسية للدول، وبالإمكان القول أن العولمة وصف لظواهر متعددة

المثقف الجزائري بين تشكيل الهوية الوطنية و إعادة هبة الدولة...د. قرزيز محمود/أ. بوقفة عبد الرحمان
يجمعها جعل العالم متقارباً مثل التقدم المذهل في وسائل الاتصال
والمواصلات والفضائيات والإنترنت، والانفتاح المعلوماتي، مع سلطة القطب
الواحد الذي يسعى لعولمة اقتصادية وعسكرية تحقق مصالحه كما يسعى
لعولمة ثقافية بفرض قيمه وثقافته، وهذه النقطة هي ما تعينا حول عولمة الثقافة
المهددة للهوية .

إذا كان ظاهر العولمة تركيزها على الجانب الاقتصادي والتقني الذي يبلغ
أوجه في المد المعلوماتي، فهي لا توازي أهمية المفهوم وحضوره المتشعب في
مختلف الخطابات المعاصرة؛ لأننا بهذا المعنى بصدد اعتبار العولمة مجرد
ممارسات جديدة في التجارة والاقتصاد المتبادل تستند إلى قوة التدفقات المالية
في سوق عالمية واحدة، واتساع رقعة المبادلات التكنولوجية، وبخاصة عبر
وسائل الاتصال والإعلام، ما يجعل مقاربتنا للعولمة قاصرة عن الإحاطة
بشموليتها واختزالاً لها في بعض مكوناتها، وإهمالا غير مبرر لتجلياتها
المختلفة والمتعددة الأشكال والألوان، الشيء الذي يتطلب ضرورة الوقوف
بدقة وشمولية، إن لم يكن على دلالة المفهوم وهو أمر لا زال مستعصياً كما
أسلفنا، فعلى تجلياتها على مختلف مظاهر الحياة الإنسانية، وفي مقدمتها
المعطى الثقافي والتربوي الذي يدخل بشكل مباشر في تشكيل الهوية
والخصوصية المحلية التي تشير أغلب الدراسات إلى أنها قد تكون الضحية
الأولى لموجة العولمة، باعتبارها سيراً نحو التنميط من خلال تمرير نموذج
ثقافي واحد يكتسح الثقافات الجهوية، ويضع مصيرها في خانة الموضوعات
التي قد تشغل اهتمام الأنثروبولوجيين بعد زمن قليل .

من هذا المنطلق نتوجه لمقاربة مفهوم العولمة من زاوية تأثيره المباشر أو
غير المباشر على الخصائص الثقافية المحلية، التي قد تسمح لنا باعتماد

المثقف الجزائري بيد تشكيل الهوية الوطنية و إعادة هبة الدولة...د. قرزيز محمود/أ. بوقفة عبد الرحمان
مصطلحات من قبيل الهوية، وفي مقدمتها المجال الثقافي المحلي الذي يقع في
دائرة نفوذ الاكتساح الثقافي الغربي.

ان من واجب المثقف الجزائري أن تشمل كتاباته ، وخطاباته و أبحاثه
حماية الإطار القيمي والغوي والثقافي الجزائري من الداخل و تحديد معالمه
بدقة ، وعدم التغلغل في المنظمة العالمية لطرق الاجتماع وبالتالي ذوبان للهوية
الثقافية كمرحلة أولى والوطنية في مرحلة تالية.

خاتمة

هناك إذن ثلاث مستويات للهوية الثقافية لأي شعب من الشعوب وهذه
المستويات هي ، الهوية الفردية الهوية الجماعية والهوية الوطنية ، والعلاقة بين
هذه المستويات الثلاث ليست ثابتة ، بل ديناميكية في مد وجزر دائمين ، يتغير
لكل منها اتساعاً وضيقاً بحسب الظروف ، و أنواع الصراع و اللامبالاة ،
والتضامن واللاتضامن التي تحركها المصالح الفردية والجماعية والمصالح
الوطنية .وبعبارة أخرى ، فأن العلاقة بين هذه المستويات الثلاث تتحدد أساسا
بنوع الآخر وبموقعه وطموحاته، فإذا كان داخليا، ويقع في دائرة الجماعة
،فالهوية الفردية هي التي تفرض نفسها ك(أنا)وان كان يقع في دائرة الأمة فالهوية
الجماعية هي التي تحل محل (الأننا) الفردي أما إذا كان الآخر (خارجيا)، أي يقع
خارج الأمة والدولة والوطن فأن الهوية الوطنية هي التي تملأ مجال أنا،ولا
تكتمل الهوية الثقافية، ولا تبرز خصوصيتها الحضارية ،ولا تغدو هوية ممثلة
قادرة على الآخذ والعطاء، ألا إذا تجسدت مرجعتها في كيان مشخص تتطابق فيه
ثلاث عناصر هي الوطن، الأمة ،الدولة .

الوطن بوصفه الأرض أو الجغرافيا والتاريخ،وقد أصبحا كيانا روحيا واحدا
يعمر قلب كل مواطن.

المثقف الجزائري بين تشكيل الهوية الوطنية و إعادة هبة الدولة...د. قرزیز محمود/أ. بوقفة عبد الرحمان
الأمة بوصفها النسب الروحي الذي تنسجه الثقافة المشتركة، بتنوعها اللغوي
والحضاري.

الدولة بوصفها التجسيد القانوني لوحدة الوطن و الأمة والجهاز الساهر على
سلامتها ووحدتهما وحماية مصالحهما.

فالهوية الثقافية ببلادنا تنتمي أكثر ما تنتمي إلى كيان الدولة وسيادتها
الثقافية، والوطن سيمثل هنا الوعاء الجغرافي و السياسي الذي تصب فيه ثقافة
ما، فتصير ثقافة وطنية ، وواجب الدولة هنا إحاطة الثقافة والنظام الثقافي
بالحماية. وتتمين دور المثقف والباحث الأكاديمي الجزائري باعتباره مرجعا
مهما يتجلى دوره في إثراء النقاش الوطني البناء وتقديم البدائل الممكنة لتنمية
ثقافة الانتماء المشترك للوطن الواحد والمواطنة التي تهدف في الأساس إلى
احترام مقدسات وخصوصية الدولة وتتمين مبدأ هبة الدولة التي هي من واجب
الجميع، من خلال بعث الشعور بالوحدة الوطنية في ظل هذا التنوع الثقافي
واللغوي الذي تتميز به بلادنا .

المراجع:

- 1- أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان،
بيروت، 1978 .
- 2- على عبد الرزاق جلبي: دراسات في المجتمع و الثقافة و الشخصية، دار
المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1996.
- 3- كوش، دوني. مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية. ترجمة قاسم المقداد. من
منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق. 2002 .

المثقف الجزائري بين تشكيل الهوية الوطنية و إعادة هبة الدولة...د. قريرز محمود/أ. بوقفة عبد الرحمان

4- بول هيرست وغراهام طومبسون. "ما العولمة؟ الاقتصاد العالمي وإمكانات التحكم"، ترجمة فاتح عبد الجبار، عالم المعرفة، العدد 273، الكويت، أيلول 2001.

5- محمد عابد الجابري "العولمة والهوية الثقافية" مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد 228، 1998/2.

6- عبد الاله بلقريرز "العولمة والهوية الثقافية" مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد 229، 1998/3.

7- الجرجاني السيد الشريف، التعريفات، مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة، 1988.

8 - عبد الغني عماد، سوسيولوجيا الثقافة، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 2002.

9- عز الدين الخطابي، سوسيولوجيا التقليد والحداثة بالمجتمع المغربي، دراسة تحليلية لدينامية العلاقة الاجتماعية، الدار البيضاء: منشورات عالم التربية، 2001.

10- سعيد إسماعيل، علي، الهوية والتعليم، عالم الكتب الطبعة الأولى، القاهرة، 2005.

11- عزيز مشواط، إشكالية الهوية في العلوم الإنسانية، مجلة العلوم الإنسانية، نوفمبر 2005، تونس.

12- جواد مصمودي، إشكالية الهوية الثقافية والمشروع الوجودي للمثقف الأمازيغي، نسخة الكترونية، اطلاع يوم 03/06/2009.

www.ageddim.jeeran.com

¹³ -Dictionnaire Larousse de poche. Librairie Larousse. Paris ; 1979.

¹⁴ -Bouzar, Wadi. La culture en question. 2^{ème} édition. Enal. Alger. 1984.

¹⁵ -Viet, Jean. les méthodes structuralistes en sciences sociales. Edition Mouton. Paris. 1963..